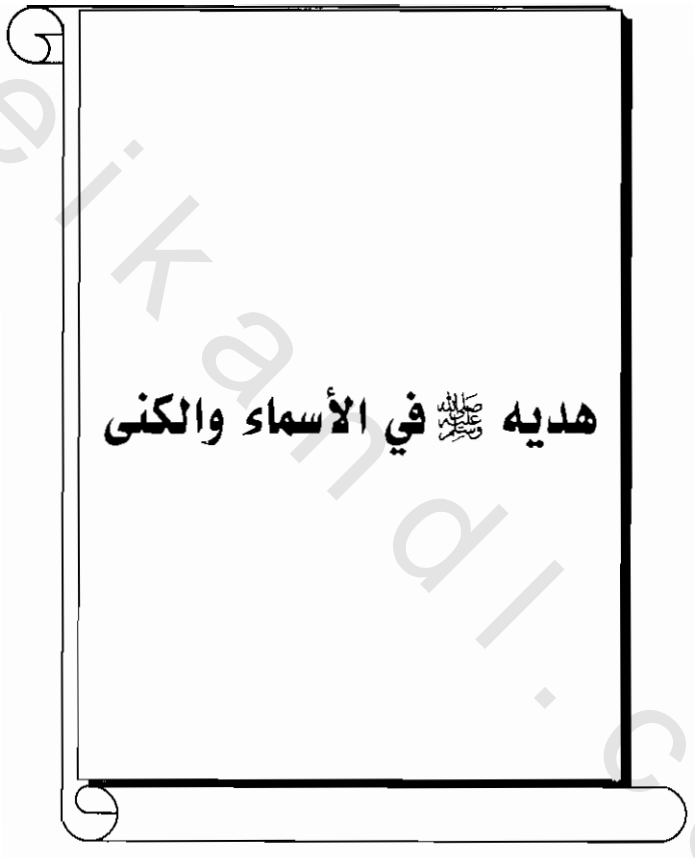

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل

في هديه ﷺ في الأسماء والكنى

ثبت عنه أنه قال : « إن أخْنَع اسم عند الله رجل تَسَمَّى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله» [١].

وثبت عنه أنه قال:«أحب الأسماء إلى الله عبد الله،وعبد الرحمن، وأصدقها حارث، وهَمَّام ، وأقبحها حَرْب ،ومُرَّة» [٢].

وثبت عنه أنه قال : « لا تُسَمِّيَنَّ غلامك يَسَارا ، ولا رَباحا ،ولا نَجِيحا ، ولا أفلح ، فإنه يقول : أثم هو ؟ فلا يكون، فتقول : لا »[٣] .

وثبت عنه أنه غير اسم عاصية ،وقال : « أنت جميلة »[٤] .

وكان اسم جويرية بَرَّة ، فغيره رسول الله ﷺ باسم جُوَيْرِيَة[٥].

وقالت زينب بنت أم سلمة : نهى رسول الله ﷺ أن يسمى بهذا الاسم ، وقال : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم »[٦].

وغير اسم أصْرَم بزُرْعَة [٧].

---

(١) البخارى فى الأدب (٦٢٠٥) ، ومسلم فى الآداب (٢١٤٣/ ٢٠) .
وقوله:« أخنع» : أى أفحش وأذلّ.
(٢) مسلم فى الآداب (٢١٣٢/ ٢) ، والترمذى فى الأدب (٢٨٣٣) .
(٣) مسلم فى الآداب (٢١٣٧/ ١٢) .
(٤) مسلم فى الآداب (٢١٣٩/ ١٤) ، وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٢) .
(٥) مسلم فى الآداب (٢١٤٠/ ١٦) .
(٦) مسلم فى الآداب (٢١٤١/ ١٩) ،وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٣) .
(٧) أبو داود فى الأدب (٤٩٥٤) ، وصححه الألبانى .

وغير اسم أبي الْحَكَم بأبي شُرَيْح [١].

وغير اسم حَزْن جد سعيد [٢]، وجعله سَهْلا فأبى، وقال: « السهل يوطأ ويُمْتَهَن » [٣].

قال أبو داود: وغير النبي ﷺ اسم العاص، وعَزِير، وعَتْلَة، وشيطان، والحَكَم، وغراب، وحُبَاب، وشهاب، فسماه هشاما.

وسمى حَرْبا سِلْما.

وسمى المضطجع المنبعث.

وأرضا عَفْرَة سماها خَضِرَة، وشِعْب الضلالة، سماه شعب الْهُدَى، وبنو الزِّنْية سماهم [٤] بني الرِّشْدَة، وسمى بني مُغْوِيَة بني رِشْدَة [٥] [٦].

---

(١) أبو داود فى الأدب (٤٩٥٥)، وصححه الألبانى.

(٢) فى ح: « سعد »، وما أثبتناه من خ، ق، ك. وهو سعيد بن المسيب.

(٣) البخارى فى الأدب (٦١٩٠)، وأبو داود فى الأدب (٤٩٥٦).

(٤) فى خ: « سماه »، وما أثبتناه من ح، ق، ك.

(٥) فى ح: « رشيدة »، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٦) أبو داود فى الأدب (٤٩٥٦).

فصل

في فقه هذا الباب

لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب[١] ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثير في المسميات ، وللمسميات تأثر[٢] عن أسمائها،في الحسن ، والقبح، والخفة، والثقل،واللطافة، والكثافة ، كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب [إلا][٣] ومعناه إن فكرت في لقبه

وكان النبي ﷺ يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريدا أن يكون حسن الاسم حسن الوجه[٤] ، وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام ، واليقظة، كما رأى أنه هو وأصحابه في دار عُقْبَة بن رافع، فأتوا برُطَبٍ من رُطَبِ ابن طَابَ ، فأوله بأن لهم الرفعة فى الدنيا ، والعاقبة فى الآخرة، وأن الدين الذي اختاره الله لهم قد أرطب، وطاب[٥] ، وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجيء سهيل بن عمرو إليه[٦] .

وندب جماعة إلى حلب شاة ، فقام رجل يحلبها، فقال : «ما اسمك ؟» فقال :

---

(١) فى ح : « ارتباطا وتناسبا » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى خ : «تأثير » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٣) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٤) المقاصد الحسنة (٨٢) ، وتنزيه الشريعة (١/ ٢٠٠) ، وقال ابن عراق :« لا يصح » .
(٥) مسلم فى الرؤيا (٢٢٧٠/ ١٨) ، وأبو داود فى الأدب (٥٠٢٥) ، وأحمد (٣/ ٢٨٦).
(٦) البيهقى فى الكبرى فى الجزية (٩/ ٢٢٠).

مُرَّة. فقال : «اجلس» فقام آخر فقال : «ما اسمك ؟» قال : أظنه: حَرْب، فقال : «اجلس» فقام آخر فقال: «ما اسمك ؟» فقال : يَعِيش، فقال : «احلبها»[١].

وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها ، كما مر في بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن أسمائهما فقالوا : فَاضِح، ومُخْزٍ[٢]، فعدل عنهما، ولم يَجُزْ بينهما.

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط ، والتناسب ،والقرابة ،ما بين قوالب الأشياء ، وحقائقها ، وما بين الأرواح والأجسام عَبَرَ العقل من كل واحد منهما إلى الآخر ،كما كان إياس بن معاوية، وغيره يرى الشخص فيقول : ينبغي أن يكون اسمه كَيْتَ وكَيْتَ، فلا يكاد يخطئ ، وضد هذا العبور من الاسم إلى مسماه، كما سأل عمر بن الخطاب رجلا عن اسمه فقال : جَمْرَة، فقال : واسم أبيك ؟ قال: شهاب [قال: ممن ؟قال : من الحُرَقَة]، قال : فمنزلك؟ قال : بِحَرَّة النار ، قال : فأين مسكنك ؟ قال : بذات لظى، فقال: اذهب فقد احترق مسكنك، فذهب فوجد الأمر، كذلك[٣] ، فعبر عمر ﷺ من الألفاظ إلى أرواحها، ومعانيها كما عبر النبي ﷺ من اسم سُهَيل إلى سهولة، أمرهم يوم الحديبية، فكان الأمر كذلك، وقد أمر النبي ﷺ بتحسين أسمائهم ، وأخبر أنهم يدعون يوم القيامة بها.

وفي هذا - والله أعلم - تنبيه على تحسين الأفعال المناسبة لتحسين الأسماء لتكون الدعوة على رؤوس الأشهاد بالاسم الحسن، والوصف الناسب له.

وتأمل كيف اشتق للنبي ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه ، وهما : أحمد ومحمد، فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد ، ولشرفها وفضلها على

---

(١) مالك فى الموطأ فى الاستئذان (٢/ ٩٧٣) (٢٤) .

(٢) فى ق : « مخير» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

(٣) مالك فى الموطأ فى الاستئذان (٢/ ٩٧٣) (٢٥) ، والمصنف لعبد الرزاق (١٩٨٦٤) .وما بين المعقوفين منهما.

صفات غيره أحمد ، فارتبط[١] الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد ، وكذلك تكنيته ﷺ لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل كنية مطابقة لوصفه ومعناه ، وهو أحق الخلق بهذه الكنية ، وكذلك تكنية الله [عز وجل][٢] لعبد العُزَّى بأبي لهب، لما كان مصيره إلى نار ذات لهب كانت هذه الكنية أليق به ، وأوفق ، وهو بها أحق ، وأخلق.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة واسمها يَثْرِب لا تعرف بغير هذا الاسم، غَيَّرَه بِطَيْبَة[٣] لما زال عنها ما في لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطِّيب استحقت هذا الاسم ، وزادت به طيبا آخر فأَثَّرَ طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيبا إلى طيبها ، ولما كان الاسم الحسن يقتضي مسماه ، ويستدعيه من قرب، قال النبي ﷺ لبعض قبائل العرب ،وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده : « يا بني عبد الله، إن الله قد حسّن[٤] اسمكم ، واسم أبيكم »، فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله تعالى بحسن اسم أبيهم، وبما فيه من المعنى المقتضي للدعوة .

وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر، كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ ، فكان الكفار : شَيْبَة، وعُتْبَة ،والوليد ،ثلاثة أسماء من الضعف،فالوليد له بداية الضعف ، وشيبة له نهايته ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم :٥٤] وعتبة من العتب ، فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم، وضعف ينالهم، وكان أقرانهم من المسلمين : علي ، وعبيدة، والحارث ﷺ، ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم وهي: العلو والعبودية، والسعي ، الذي هو الحرث، فَعَلَوْا[٥] عليهم بعبوديتهم وسعيهم في حرث الآخرة.

---

(١) فى ح : « فاربط » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) ليست فى ق ، ك ، وما أثبتناه من ح ، خ .
(٣) البخارى فى فضائل المدينة (١٨٧٢) ، ومسلم فى الحج (١٣٩٢/ ٥٠٣) .
(٤) فى ح : « أحسن » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥) فى ق : « وملوا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

ولما كان الاسم مقتضيا لمسماه ، ومؤثرا فيه كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه ؛ كعبد الله ، وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما من الأسماء، كالقاهر ، والقادر ، فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر ، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه، وهذا لأن التعلق الذي بين العبد ،وبين الله إنما هو العبودية المحضة ، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده، وكمال وجوده، والغاية التي[1] أوجده لأجلها أن يتأله وحده محبة ، وخوفا، ورجاء، وإجلالا ، وتعظيما فيكون عبدا لله، وقد عبده به في اسم الله من معنى الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه، وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر، والله أعلم .

فصل

ولما كان كل عبد متحركا بالإرادة ،والهَمُّ مبدأ الإرادة، ويترتب على إرادته حرثه وكسبه كان أصدق الأسماء : اسم هَمَّام ،واسم حارث، إذ لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناهما ،ولما كان الملك الحق لله وحده، ولا مَلِكَ على الحقيقة سواه كان أخْنَع[2] اسم وأوضعه عند الله تعالى وأغضبه له اسم (شاهان شاه) ، أي : ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير[3] الله عز وجل، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل ، والله لا يحب الباطل .

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا قاضي القضاة ، وقال : ليس قاضي القضاة إلا

---

(١) فى خ : «الذى » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٢) فى ح ، خ ، ق : « أجمع » ، وما أثبتناه من ك .
(٣) فى ك : « إلا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .

من يقضي الحق[١] ، وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمرا ، فإنما يقول له : كن فيكون .

ويلي هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب : سيد الناس، وسيد الكل[٢]، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة،كما قال : «أنا سيد ولد آدم»[٣]، فلا يجوز لأحد أن يقول عن غيره إنه سيد الناس، كما لا يجوز أن يقول : إنه سيد ولد آدم .

فصل

ولما كان مسمى[٤] الحرب، والْمُرَّة[٥] أكره شيء للنفوس ، وأقبحها عندها، كان أقبح الأسماء حَرْبا ، ومُرَّة ، وعلى قياس هذا حَنْظَلَة ،وحَزْن ،وما أشبههما، وما أجدر هذه الأسماء بتأثيرها في مسمياتها ، كما أثر اسم حَزْن الحزونة في سعيدبن المُسيِّب وأهل بيته .

فصل

ولما كان الأنبياء سادات بني آدم، وأخلاقهم أشرف الأخلاق، وأعمالهم أصح الأعمال ، كانت أسماؤهم أشرف الأسماء، فندب النبي ﷺ أمته إلى التسمي بأسمائهم، كما في سنن أبي داود والنسائي ، عنه « تَسَمَّوا بأسماء الأنبياء»[٦]، ولو لم يكن في ذلك

---

(١) فى ك : « بالحق » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) فى ق : « سيد الناس وسيد الناس» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٣) مسلم فى الفضائل (٢٢٧٨/ ٣)، وأبو داود فى السنة (٤٦٧٣) .
(٤) فى ق : « مبنى» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٥) فى ك : « المسرة » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٦) أبو داود فى الأدب (٤٩٥٠) ، والنسائى فى الخيل (٣٥٦٥) ، وقال الألبانى : « صحيح دون قوله : تسموا بأسماء الأنبياء » .

من المصالح إلا أن الاسم يذكر بمسماه، ويقتضي التعلق بمعناه لكفى به مصلحة، مع ما في ذلك من حفظ أسماء الأنبياء وذكرها، وألا تنسى، وأن تُذَكِّر أسماؤهم بأوصافهم، وأحوالهم .

فصل

وأما النهي عن تسمية الغلام بـ : يسار، وأفلح ،ونَجِيح، ورَباح، فهذا لمعنى آخر قد أشار إليه في الحديث، وهو قوله : «فإنك تقول : أثَمَّ هو ؟ [فلايكون] فيقال: لا»[(١)]-والله أعلم - هل هذه الزيادة من تمام الحديث المرفوع ،أو مدرجة من قول الصحابي، وبكل حال فإن هذه الأسماء لما كانت قد توجب تطيرا تكرهه النفوس، ويصدها عما هي بصدده ،كما إذا قلت لرجل : أعندك يسار أو رباح أو أفلح ؟ قال : لا ،تطيرت أنْتَ وهو من ذلك، وقد تقطع الطِّيَرَة لا سيما على المتطيرين، فَقَلَّ من تطير إلا ووقعت به طيرته، وأصابه طائره كما قيل:

تَعلَّم أنه لا طير إلا على متطير فهو[(٢)] الثُّبور

فاقتضت حكمة الشارع ، الرؤوف بأمته ، الرحيم بهم، أن يمنعهم من أسباب توجب لهم سماع المكروه ، أو وقوعه، وأن يعدل عنها إلى أسماء تُحَصِّل المقصود من غير مفسدة، هذا إلى ما ينضاف إلى ذلك من تعليق ضد الاسم عليه بأن يسمى يسارا[(٣)] مَنْ هو مِنْ أعسر الناس، ونجيحا من لا نجاح عنده ، ورباحا من هو من الخاسرين، فيكون قد وقع في الكذب عليه ، وعلى الله، وأمر آخر أيضا وهو أن

---

(١) مسلم فى الآداب (٢١٣٧/ ١٢) .

قلت : وفى المطبوع : « أثَمَّتَ هو » ، وما أثبتناه هو من النسخ الموافق لما عند مسلم . وأما ما بين المعقوفين فقد أثبتناه من مسلم ؛ وذلك لتمام المعنى .

(٢) فى ح ، ق : «فهى» ، وما أثبتناه من خ ، ك .

(٣) فى ق : « يسار » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

يطالب المُسمَّى بمقتضى اسمه، فلا يوجد عنده ، فيجعل ذلك سببا لذمه وسبه ، كما قيل:

سَمَّوْك من جهلهم سديدا والله ما فيك من سداد
أنت الذى كونه فسادا[1] فى عالم الكون والفساد

فتوصل الشاعر بهذا الاسم إلى ذم المسمى به ،ولي من أبيات:

وسميته صالحا فاغتدى بضد اسمه في الوَرَى سائرا
وظن بأن اسمه ساتر لأوصافه فغدا شاهرا

وهذا كما أن من المدح ما يكون ذما ، وموجبا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس، فإنه يُمدَح بما ليس فيه ،فتطالبه النفوس بما مُدِح به ، وتظنه عنده فلا تجده كذلك، فينقلب ذما ، ولو ترك بغير مدحه لم تحصل له هذه المفسدة ، ويشبه حاله حال من ولي ولاية سيئة ثم عزل[2] عنها ، فإنه تنقص مرتبته عما كان عليه قبل الولاية ،وينقص في نفوس الناس عما كان عليه قبلها، وفي هذا قال القائل:

إذا ما وصفت امرأً لامرئ فلا تغل في وصفه واقصد[3]
فإنك إن تَغْلُ تَغْلُ الظنو ن فيه إلى الأمد الأبعد
فينقص من حيث عظمته لفضل المغيب عن المشهد

وأمر آخر [أيضا][4] : وهو ظن المسمى واعتقاده في نفسه أنه كذلك ، فيقع في تزكية نفسه، وتعظيمها، وتَرفُّعها على غيره ، وهذا هو المعنى الذي نهى النبي ﷺ

(١) فى ك : «فسادًا» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) فى ق : « وعزل » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٣) فى ق : «واقتصد» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٤) ليست فى خ ، ق ، وما أثبتناه من ح ، ك .

لأجله أن تسمى بَرَّة، وقال : « لا تزكوا أنفسكم [١]، الله أعلم بأهل البر منكم» [٢]، وعلى هذا فتكره التسمية بـ: التقي، والمتقي ، والمطيع، والطائع ، والراضي، والمحسن، والمخلص، والمنيب،والرشيد ، والسديد، وأما تسمية الكفار بذلك،فلا يجوز التمكين منه ، ولا دعاؤهم بشيء من هذه الأسماء ، ولا الإخبار عنهم بها، والله - عز وجل - يغضب من تسميتهم بذلك .

فصل

وأما الكنية فهي نوع تكريم لِلْمُكْنِّي ، وتنويه به ، كما قال [الشاعر] [٣]:

أكْنِيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقب [٤]

وكَنَّى النبي ﷺ صُهَيْبا بأبي يحيى ، وكنى عليا بأبي تراب إلى كنيته بأبي الحسن،وكانت أحب كنيته إليه ،وكنّى أخا أنس بن مالك وكان صغيرا دون البلوغ بأبي عمير .

وكان هديه ﷺ تكنية من له ولد، ومن لا ولد له، ولم يثبت عنه أنه نهى عن كنية إلا الكنية بأبي القاسم، فصح عنه، أنه قال: « تَسَمَّوا باسمي، ولا تَكَنَّوْا بكنيتي» [٥].

فاختلف الناس في ذلك على أربعة أقول :

أحدها : أنه لا يجوز التكني بكنيته مطلقا، سواء أفردها عن اسمه، أو قرنها به،

---

(١) في ح : « نفسكم » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) مسلم في الآداب (٢١٤١/ ١٩) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٥٣) .
(٣) ليست في ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٤) في ق : «اللقبا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٥) البخاري في الأدب (٦١٨٧) ، ومسلم في الآداب (٢١٣٤/ ٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٦٥) .

وسواء محياه[١] وبعد وفاته ، وعمدتهم عموم [هذا][٢] الحديث الصحيح، وإطلاقه، وحكى البيهقي ذلك عن الشافعي، قالوا : لأن النهي إنما كان لأن معنى[٣] هذه التكنية والتسمية مختصة به ﷺ وقد أشار إلى ذلك بقوله : « والله لا أعطي أحدا ،ولا أمنع أحدا ، وإنما أنا قاسم[٤] أضع حيث أمرت »[٥] ، قالوا : ومعلوم أن هذه الصفة ليست على الكمال لغيره.

واختلف هؤلاء في جواز تسمية المولود بقاسم، فأجازه طائفة، ومنعه آخرون ، والمجيزون نظروا إلى أن العلة عدم مشاركة[٦] النبي ﷺ فيما اختص به من الكنية،وهذا غير موجود في الاسم، والمانعون نظروا إلى أن المعنى الذي نهى عنه في الكنية مثله [هنا][٧] في الاسم سواء، أو هو أولى بالمنع، قالوا : وفي قوله :« وإنما أنا قاسم » إشعار بهذا الاختصاص .

القول الثاني : أن النهي عن الجمع بين اسمه وكنيته،فإذا أفرد أحدهما عن الآخر فلا بأس ، قال أبو داود : باب من[٨] رأى ألا يجمع بينهما ، ثم ذكر حديث أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ قال : « من تَسَمَّى باسمي فلا يَتكنَّ بكنيتي ، ومن اكتنى بكنيتي فلا يَتَسمَّ باسمى » ، ورواه الترمذي،وقال : حديث حسن غريب[٩] ، وقد رواه الترمذي أيضا من حديث محمد بن عَجْلان، عن أبي هريرة وقال : حديث حسن صحيح ، ولفظه : نهى رسول اللهﷺ أن يجمع أحد بين اسمه وكنيته ويسمى

---

(١) فى ك : « بحياته» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) ليست فى خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من ح .
(٣) فى ك : « كان لمعنى » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٤) فى ح : « أبا القاسم » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥) البخاري فى فرض الخمس (٣١١٧) ، وأبو داود فى الخراج والإمارة والفيء (٢٩٤٩).
(٦) فى ق : « مشاركته » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٧) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٨) فى ك : «لا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٩) أبو داود في الأدب (٤٩٦٦) ، والترمذي فى الأدب (٢٨٤٢)، وقال الألباني :« منكر » .

محمدا [١]: أبا القاسم [٢]. قال أصحاب هذا القول : فهذا مقيد مفسر لما في الصحيحين من نهيه عن التكني بكنيته .

قالوا : ولأن في الجمع بينهما مشاركة في الاختصاص بالاسم والكنية ،فإذا أفرد أحدهما عن الآخر زال الاختصاص .

القول الثالث : جواز الجمع بينهما ، وهو المنقول عن مالك، واحتج أصحاب هذا القول، بما رواه أبو داود والترمذي من حديث محمد ابن الحنفية ، عن علي قال قلت : يا رسول الله، إن ولد لى من بعدك ولد أسميه باسمك، وأكنيه بكنيتك ؟ قال:« نعم»، قال الترمذي : حديث حسن صحيح [٣].

وفي سنن أبي داود ، عن عائشة قالت : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ، إني ولدت غلاما فسميته محمدا، وكنيته أبا القاسم، فذُكِرَ لي أنك تكره ذلك ؟ فقال: « ما الذي أحَلَّ اسمي، وحَرَّمَ كنيتي »، أو: « ما الذي حرم كنيتي، وأحل اسمي »[٤]، قال هؤلاء : وأحاديث المنع منسوخة بهذين الحديثين.

القول الرابع : إن التكني بأبي القاسم كان ممنوعا في حياة النبي ﷺ ،وهو جائز بعد وفاته ، قالوا : وسبب النهي إنما كان مختصا بحياته، فإنه قد ثبت في الصحيح من حديث أنس قال : نادى رجل بالبَقيع : يا أبا القاسم، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله ،إني لم أعْنِك ،إنما دعوت فلانا، فقال رسول الله ﷺ : « تسموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي »[٥] ، قالوا : وحديث علي فيه إشارة إلى ذلك بقوله : إن

---

(١) فى ق : «محمد» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

(٢) الترمذى فى الأدب (٢٨٤١).

(٣) أبو داود في الأدب (٤٩٦٧) ،والترمذي فى الأدب(٢٨٤٣) ، وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود في الأدب (٤٩٦٨) ، وضعفه الألبانى .

(٥) البخارى فى المناقب (٣٥٣٧) ، ومسلم فى الآداب (٢١٣١/ ١) .

ولد لي من بعدك ولد، ولم يسأله عمن يولد له في[١] حياته، ولكن قد قال علي في هذا الحديث: «وكانت رخصة لي»، وقد شذ من لا يؤبه لقوله، فمنع التسمية باسمه ﷺ قياسا على النهي عن[٢] التكني بكنيته.

والصواب أن التسمي باسمه [جائز][٣]، والتكني بكنيته ممنوع منه، والمنع في حياته أشد، والجمع بينهما ممنوع منه، وحديث عائشة غريب لا يعارض بمثله الحديث الصحيح، وحديث علي ﷺ في صحته نظر، والترمذي فيه نوع تساهل في التصحيح، وقد قال علي: إنها رخصة له، وهذا يدل على بقاء المنع لمن سواه، والله أعلم.

فصل

وقد كره قوم من السلف والخلف الكنية بأبي عيسى، وأجازها آخرون، فروى أبو داود عن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب ابنا له تكنى أبا عيسى، وأن المغيرة بن شعبة تكنى بأبي عيسى، فقال له عمر: أما يكفيك أن تكنى بأبي عبد الله؟ فقال: إن رسول الله ﷺ كَنَّاني، فقال: إن رسول الله ﷺ قد غفر له من ذنبه، وما تأخر، وإنا في جَلْجَتِنا[٤] فلم يزل يكني بأبي عبد الله حتى هلك[٥].

وقد كنى عائشة بأم عبد الله[٦]، وكان لنسائه أيضا كنى؛ كأم حبيبة وأم سلمة.

---

(١) في ك: «فيه»، و ما أثبتناه من ح، خ، ق.

(٢) في ك: «على»، وما أثبتناه من ح، خ، ق.

(٣) ليست في ح، ق، ك، وما أثبتناه من خ.

(٤) في ح، خ: «جلجبيتنا»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٥) أبو داود في الأدب (٤٩٦٣)، وصححه الألباني.

والجَلَج: رؤوس الناس، واحدتها جَلَجَة، والمعنى: إنا بقينا في عدد من أمثالنا لا ندري ما يصنع بنا.

(٦) أبو داود في الأدب (٤٩٧٠).

فصل

ونهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب كَرْما[١]، وقال : « الكرم قلب المؤمن»[٢]، وهذا لأن هذه اللفظة تدل على كثرة الخير، والمنافع في المسمى بها، وقلب المؤمن هو المستحق لذلك دون شجرة العنب ،ولكن : هل المراد النهي عن تخصيص شجرة العنب بهذا الاسم، وأن قلب المؤمن أولى به منه ، فلا يمنع من تسميته بالكرم،كما قال في المسكين ، والرَّقُوب[٣] ، و المفلس ، أو المراد أن تسميته بهذا مع اتخاذ الخمر المحرم منه وصف بالكرم ، والخير، والمنافع لأصل[٤] هذا الشراب الخبيث المحرم، وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله، وتهييج النفوس عليه ، هذا محتمل[٥]، والله أعلم بمراد رسوله[٦] ﷺ ، والأولى ألا يسمى شجر العنب كرما .

فصل

وقال ﷺ : «لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ،ألا وإنها العشاء، وإنهم يسمونها العَتَمَة»[٧]، وصح عنه أنه قال: «لو يعلمون ما في العتمة ، والصبح لأتوهما ولو حبوا »[٨] ، فقيل : هذا ناسخ للمنع ، وقيل بالعكس.

---

(١) أبو داود فى الأدب (٦١٨٢) .
(٢) البخارى فى الأدب (٦١٨٣) ، ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٧/ ٩) .
(٣) الرَّقُوب: الذى لم يمت أحد من أولاده فى حياته.
(٤) فى خ : « لأجل » ، وماأثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٥) فى خ : « يحتمل » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٦) فى ح : « رسول الله ﷺ » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٧) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٦٣) .
(٨) البخارى فى الأذان (٦١٥) ، ومسلم فى الصلاة (٤٣٧/ ١٢٩) .

والصواب خلاف القولين، فإن العلم بالتاريخ متعذر ، ولا تعارض بين الحديثين ، فإنه لم ينه عن إطلاق اسم العتمة بالكلية، وإنما نهى عن أن يهجر اسم العشاء ،وهو الاسم الذي سماها الله [به][(١)] في كتابه، ويغلب عليه اسم العتمة فإذا سميت العشاء، وأطلق عليها أحيانا بالعتمة فلا بأس ، والله أعلم .

وهذا محافظة منه ﷺ على الأسماء التى سمى الله بها العبادات، فلا تهجر ، ويؤثر عليها غيرها ، كما فعله المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص ،وإيثار المصطلحات الحادثة عليها، ونشأ بسبب هذا من الفساد ما الله به عليم[(٢)] .

وهذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله ،وتأخير ما أخره كما بدأ بالصفا،وقال : «أبدأ[(٣)] بما بدأ الله به»[(٤)] ، وبدأ في العيد بالصلاة ، ثم نحر[(٥)] بعدها،وأخبر أن « من ذبح قبلها فلا نسك له » تقديما لما بدأ الله به من[(٦)] قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] ، وبدأ في أعضاء الوضوء بالوجه ،ثم اليدين، ثم الرأس، ثم الرجلين تقديما لما قدمه الله ،وتأخيرا لما أخره، وتوسيطا، لما وسطه، وقدم زكاة الفطر على صلاة العيد تقديما لما قدمه [الله][(٧)] في قوله :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى] ، ونظائره كثيرة .

---

(١) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٢) فى ح : « أعلم» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٣) فى ك : « ابدؤا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٤) مسلم فى الحج (١٢١٧/ ١٤٧) ، وأبو داود فى المناسك(١٩٠٥) ، والترمذى فى الحج (٨٦٢) .
(٥) فى ك : « جعل النحر » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٦) فى ك : « فى » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٧) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

فصل

في هديه ﷺ في حفظ المنطق واختيار الألفاظ

كان يتخير في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ ، وأجملها ، وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء، والغلظة، والفحش ،فلم يكن فاحشا ، ولا متفحشا، ولا صَخَّابا، ولا فظا .

وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك ، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله .

فمن الأول : منعه أن يقال للمنافق : يا سيدنا ، وقال : « فإنه إن يك[١] سيدا فقد أسخطتم[٢] ربكم عز وجل »[٣]، ومنعه أن يسمى شجر العنب كَرْمًا ، ومنعه من تسمية أبي جهل بأبي الحكم ، وكذلك تغييره لاسم أبي الحكم من الصحابة : بأبي شُرَيْح ، وقال : « إن الله هو الحكم ،وإليه الحكم »[٤] .

ومن ذلك : نهيه للمملوك[٥] أن يقول لسيده وسيدته : رَبِّي ، ورَبَّتي ، وللسيد أن يقول لمملوكه : عبدي، ولكن يقول المالك: فَتَاي ، وفَتَاتي ، ويقول المملوك : سيدي، وسيدتي [٦]، وقال لمن ادعى أنه طبيب: « أنت رفيق، وطبيبها الذي خلقها» [٧]،

---

(١) فى ح ، خ ، ك : « فإن يك» ، وفى ق : «فإن لم يك » ، وما أثبتناه من سنن أبى داود .
(٢) فى ح ، خ ، ق : « أغضبتم » ، وما أثبتناه من ك .
(٣) أبو داود فى الأدب (٤٩٧٧)، وصححه الألبانى .
(٤) أبو داود فى الأدب (٤٩٥٥)، وصححه الألبانى .
(٥) فى ح : « المملوك » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٦) أبو داود فى الأدب (٤٩٧٥) ، وصححه الألبانى .
(٧) أبو داود فى الترجل (٤٢٠٧) ، وصححه الألبانى .

والجاهلون يسمون الكافر الذي له علم ما بشيء من الطبيعة حكيما ، وهو من أسفه الخلق .

ومن هذا قوله للخطيب[١] الذي قال : من يطع الله ورسوله فقد رَشَد ، ومن يعصهما فقد غَوَى: « بئس الخطيب أنت»[٢] .

ومن ذلك قوله : « لا تقولوا : ما شاء الله ،وشاء فلان ،ولكن قولوا : ما شاء الله، ثم شاء فلان»[٣] ، وقال له رجل : ما شاء الله، وشئت، قال : « أجعلتني لله ندا؟ قل : ما شاء الله وحده »[٤].

وفي معنى هذا الشرك المنهي عنه قول من لا يتوقى الشرك : أنا بالله وبك ، وأنا في حسب الله وحسبك ، ومالي إلا الله وأنت، وأنا[٥] متوكل[٦] على الله وعليك، وهذا من الله ومنك ، والله لي في السماء[٧] وأنت لي في الأرض، ووالله وحياتك، وأمثال هذا من الألفاظ التي يجعل [فيها][٨] قائلها المخلوق نِدًّا للخالق ، وهي أشد منعا، وقُبْحًا من قوله : ما شاء الله، وشئت .

فأما إذا قال : أنا بالله ،ثم بك ،وما شاء الله، ثم شئت، فلا بأس بذلك، كما في حديث الثلاثة[٩]: « لا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك »[١٠]، وكما في الحديث المتقدم: الإذن أن يقال[١١] : ما شاء الله ، ثم شاء فلان .

---

(١) فى خ : « قول الخطيب » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٢) مسلم فى الجمعة (٨٧٠/ ٤٨) ، وأبو داود فى الصلاة (١٠٩٩) .
(٣) أحمد (٥/ ٣٨٤) ، وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٠) ، وصححه الألبانى .
(٤) أحمد (١/ ٢١٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٨٣٩) : « إسناده صحيح » .
(٥) فى ق : « إنى » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٦) فى ح ، ق : « متكل » ، وما أثبتناه من خ ، ك .
(٧) فى ح : « السموات » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٨) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٩) فى خ : « التلبية » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(١٠) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤) ، ومسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٦٤/ ١٠) .
(١١) فى ح : « يقول » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

فصل

وأما القسم الثاني ، وهو : أن يطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها ، فمثل نهيه ﷺ عن سب الدهر، وقال : « إن الله هو الدهر » .

وفي حديث آخر : « يقول الله على عز وجل : يؤذيني ابن آدم فيسب [١] الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أُقلِّب الليل والنهار »[٢].

وفي حديث آخر: «لا يقولن أحدكم : يا خَيْبَة الدهر »[٣].

وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة .

إحداها : سبه من ليس بأهل للسب [٤]، فإن الدهر خَلْق مسخر من خلق الله ، منقاد لأمره، مذلل لتسخيره فسابه أولى بالذم والسب منه .

الثانية : إن سبه[٥] متضمن[٦] للشرك ، فإنه إنما يسبه لظنه أنه يضر وينفع ، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر ،وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه [٧] من أظلم الظلمة ، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جدا ، وكثير من الجهال يصرح بلعنته[٨] وتقبيحه .

---

(١) فى ك : « يسب » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٩١) ، ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١) ، وأبو داود فى الأدب (٥٢٧٤).

(٣) البخارى فى الأدب (٦١٨١) ، ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦/ ١).

(٤) فى ح : « السب » ، وفى ك : « من ليس من أهل السب » ، وما أثبتناه من خ ، ق .

(٥) فى ق : « سببه » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

(٦) فى خ : « متمض » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .

(٧) فى ح : « شاتمه » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٨) فى ك : « بلعنه» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .

الثالثة : إن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال ، التي لو أتبع الحق [فيها] [١] أهواءهم لفسدت السموات والأرض ، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر فرب الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع ،المعز المذل ،والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم للدهر مسبة لله تعالى ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة ،عن النبي ﷺ: « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهر ،وأنا الدهر »،فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما، إما مسبة لله ، أو الشرك به ، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله فقد سب الله .

ومن هذا قوله ﷺ: « لا يقولن أحدكم : تَعِسَ الشيطان ، فإنه يتعاظم حتى يكون مثل البيت ، فيقول : بقوتي صَرَعْتُه، ولكن ليقل : بسم الله، فإنه يتصاغر حتى يكون مثل الذباب » [٢].

وفي حديث آخر :« إن العبد إذا لعن الشيطان يقول : إنك لَتَلْعَن مُلَعَّنا ».

ومثل هذا قول القائل : أخزى الله الشيطان ،وقَبَّح الله الشيطان، فإن ذلك يفرحه ، ويقول : علم ابن ادم أني قد نِلْته بقوتي، وذلك مما يعينه على إغوائه ، ولا يفيده شيئا، فأرشد النبي ﷺ من مسه شيء من الشيطان أن يذكر الله، ويذكر اسمه،ويستعيذ بالله منه، فإن ذلك أنفع له وأغيظ للشيطان .

فصل

من ذلك « نهيه ﷺ أن يقول الرجل : خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقل [٣] : لَقِسَتْ

---

(١) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٢) أبو داود فى الأدب (٤٩٨٢) ، وأحمد (٥/ ٥٩) ، وصححه الألبانى .
(٣) فى ق : « يقول » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

نفسي»[١]، ومعناهما واحد أي : غَثَتْ [نفسي][٢]، وساء خلقها ، فكره لهم لفظ الخُبْث لما فيه من القبح، والشناعة[٣]، وأرشدهم إلى استعمال الحسن ،وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه .

ومن ذلك أنه ﷺ نهى[٤] عن قول القائل بعد فوات الأمر :« لو أني فعلت كذا وكذا »، وقال : « إن لو تفتح عمل الشيطان » ، وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ،وهو أن يقول : « قَدَّر الله وما شاء فعل»[٥]، وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ،وغير مستقيل عثرته بـ (لو) ، وفي ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه لكان غير ما قضاه الله، وقدره، وشاءه، فإن ما وقع مما يتمنى خلافه، إنما وقع بقضاء الله ،وقدره، ومشيئته، فإذا قال: لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع فهو محال، إذ وقوع خلاف المقدر المقضي محال ، فقد تضمن كلامه كذبا ، وجهلا ، ومحالا ،وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أني فعلت لدفعت ما قدر الله عَلَيَّ .

فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر[٦]، ولا جحد له، إذ تلك الأسباب التي تمناها أيضا من القدر ، فهو يقول : لو وقفت لهذا القدر لا ندفع به عني ذلك القدر ،فإن القدر يدفع بعضه ببعض، كما يدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد ، وكلاهما من القدر .

---

(١) البخارى فى الأدب (٦١٧٩) ، ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٥٠/ ١٦).
(٢) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٣) فى ك : «البشاعة » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٤) فى ك : «ومن ذلك نهيه ﷺ»، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٥) مسلم فى القدر (٢٦٦٤/ ٣٤) ، وابن ماجه فى المقدمة(٧٩) ، وأحمد (٢/ ٣٦٦، ٣٧٠) .
(٦) فى ك : « المقدر » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .

وقيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه ،فأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه[١] ، أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلت، بل وظيفته في هذه الحالة[٢] أن[٣] يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف أثر ما وقع لا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز ، ويحب الكَيْس ،ويأمر به ،والكَيْس : هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ،ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير والأمر، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان ، فإنه إذا عجز عما[٤] ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله : لو كان كذا ولو فعلت كذا انفتح عليه عمل الشيطان ، فإن بابه العجز، والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر[٥] ، و يصدر عنهما الهم ، والحزن ،والجبن، والبخل، وضَلَع[٦] الدين ، وغَلَبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل ،وعنوانها لو ، فلذلك قال [النبي][٧] ﷺ : « فإن لو تفتح عمل الشيطان» فإن المتمنى[٨] من أعجز الناس ، وأفلسهم ، فإن التمنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر .

وأصل المعاصي كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب الطاعات، وعن الأسباب التي تعوضه[٩] عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع[١٠] هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر، وفروعه ومباديه،

---

(٨) فى ح : «رفعه » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٢) فى ق : « الحال » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٣) فى ق : « إذا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٤) فى ح : « مما » ، وفى خ : « فيما » ، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٥) فى ح ، خ ، ق : « شىء » ، وما أثبتناه من ك . وصححت بهامش ح : « شر» .
(٦) ضَلَع الدَّيْن: ثقله وشدته، حيث لا يجد المدين وفاءً لمن يطالبه .
(٧) ليست فى ح ، خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .
(٨) فى ك : « والمتمنى » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٩) فى ح : « تعوقه »، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(١٠) فى ح : «فجميع » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

وغاياته، وموارده، ومصادره، وهو مشتمل على ثماني خصال، كل خصلتين منها قرينتان .

فقال : «أعوذ بك من الهم والحزن »[١]، وهما قرينان ،فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين: فإنه إما أن يكون سببه أمرا ماضيا فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل فهو يورث الهم، وكلاهما من العجز، فإن[٢] ما مضى لا يدفع بالحزن بل بالرضا ، والحمد ، والصبر، والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدر الله وما شاء فعل ،وما يستقبل لا يدفع - أيضا - بالهم ، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه ،وإما ألا يكون له حيلة [في دفعه][٣] فلا يجزع[٤] منه . ويلبس له لباسه، ويأخذ [له][٥] عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة به، ويستجن بجُنَّة حصينة من التوحيد ،والتوكل ، والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له، والرضا به ربا في كل شيء، ولا يرضى به ربا فيما يحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا لم يرض به ربا على الإطلاق فلا يرضاه الرب له عبدا على الإطلاق ، فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة بل مضرتهما أكبر[٦] من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء، أو يعوقانه، ويقفانه، أو[٧] يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه، وجد في سيره، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته، وإرادته التي تضره في معاشه، ومعاده انتفع به من هذا الوجه .

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٣) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٨٠) ، وأحمد (٣/ ١٢٢، ١٥٩) .
(٢) فى ح ، خ : « فإنه » ، وما أثبتناه من ق ، ك .
(٣) ليست فى ق ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك.
(٤) فى ح : « يخرج» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥) ليست فى ح ، خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .
(٦) فى خ : « أكثر» ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٧) فى ق : « و» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته ، وخوفه،ورجائه، والإنابة إليه،والتوكل عليه، والأنس به، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ليردها[١] بما يبتليها به من الهموم ، والغموم، والأحزان، والآلام القلبية عن كثير من معاصيها، وشهواتها المردية، وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار، وإن أريد بها خيراً كان حظها من سجن الجحيم في معادها .

ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد ، والإقبال على الله، والأنس به، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب، ووساوسه بحيث يكون ذكره تعالى وحبه ،وخوفه، ورجاؤه، والفرح به ،والابتهاج بذكره هو المستولي على القلب الغالب عليه، الذي متى فقده فقد قوته[٢]، الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام[٣] التي هي أعظم أمراضه، وأفسدها[٤] له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو .

وإذا أراد عبده لأمر هيأه له، فمنه الإيجاد، ومنه الإعداد ،ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان فبحمده أقامه فيه ،وبحكمته إقامته[٥] فيه، ولا يليق به غيره ولا يصلح له سواه ،ولا مانع لما أعطى [الله][٦]، ولا معطي لما منع، ولا يمنع عبده حقا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالما له، بل منعه[٧] ليتوسل[٨] إليه بمحابه

(١) فى ك : « ليرد » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) فى ق : « متى فقد فَقدٌ فقد قوته » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٣) فى ح : « الأمور » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٤) فى خ : « إفسادها » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٥) فى خ : « أقامه » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٦) ليست فى ح ، خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .
(٧) فى خ : « يمنعه » ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٨) فى ق : « ليتوصل » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .

ليعطيه [١]، وليتضرع إليه، ويتذلل بين يديه ويتملقه ، ويعطي فقره إليه حقه، بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة، والظاهرة فاقة تامة إليه على تعاقب الأنفاس ، وهذا هو الواقع في نفس الأمر ، وإن لم يشهده فلم يمنع [الرب][٢] عبده ما العبد محتاج إليه بخلا منه، ولا نقصا من خزائنه، ولا استئثارا عليه بما هو حق للعبد، بل منعه ليرده إليه، وليعزه بالتذلل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه ،وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر، وليلبسه خلعة العبودية، ويوليه بعزله أشرف الولايات، وليشهده حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبره ولطفه في قهره، وأن منعه عطاء، وعزله تولية، وعقوبته تأديب،وامتحانه محبة[٣] ، وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه [به][٤] إليه .

وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحمده وحكمته أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام] .

فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل ، وَمَحَالِّ التخصيص ،ومحال الحرمان، فبحمده وحكمته[٥] أعطى ، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلى الافتقار إليه، والتذلل له[٦] ، وتملقه انقلب في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطعه عنه انقلب [العطاء] [٧] في حقه منعا، فكل ما شغل العبد عن الله فهو مشؤوم عليه،

---

(١) فى ك : « ليطيعه » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٣) فى ك : « منحة » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٤) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٥) فى ح : « وبحكمته » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٦) فى ق : « إليه » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٧) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

وكل ما رده إليه فهو رحمة به، فالرب - تعالى - يريد من عبده أن يفعل ، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه .

فهو سبحانه أراد منا الاستقامة واتخاذ السبيل إليه .وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع[١] حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيئته[٢] لنا فهما[٣]، [إرادتان][٤] : إرادة من عبده أن يفعل ، وإرادة[٥] من نفسه أن يعينه ، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة ، ولا يملك منها شيئا ،كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[التكوير] ، فإن كان مع العبد روح أخرى نسبتها[٦] إلى روحه كنسبة روحه إلى جسده ، يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلا ، وإلا فمحله غير قابل للعطاء[٧]، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء[٨]، فمن جاء بغير إناء رجع بالحرمان ، ولا يلومن إلا نفسه.

والمقصود أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن وهما قرينان ،ومن العجز والكسل وهما قرينان ، فإن تَخَلُّف كمال العبد وصلاحه عنه، إما أن يكون لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادرا ،عليه لكن لا يريده فهو كسل ، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير ، وحصول كل شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه، وهو الجبن ،وعن النفع بماله وهو البخل ، ثم ينشأ من بذلك غلبتان غلبة بحق ، وهي غلبة[٩] الدين ، وغلبة بباطل ، وهي غلبة الرجال ، وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل .

---

(١) فى ك : « ينفع » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) فى خ : « ومشيئتها» ، وما أثبتناه من ح ، ق ، ك .
(٣) فى ك : « فما » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٤) ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .
(٥) فى ح : « أراد » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٦) فى ح : «ينسبها » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٧ ، ٨) فى ك : « للعطايا» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٩) فى ك : « ضلع » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .

ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه فقال : حسبي الله، ونعم الوكيل ، فقال : «إن الله يلوم على العَجْز ، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك[١] أمر،فقل : حسبي الله ونعم الوكيل »[٢]، فهذا قال : حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكيس، الذي لو قام[٣] به لقضى له على خصمه ، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كَيِّسا[٤] ، ثم غلب فقال : حسبى الله ونعم الوكيل ؛ لكانت الكلمة قد وقعت موقعها ،كما أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما فعل الأسباب المأمور بها ،ولم يعجز بتركها ،ولا ترك شيء منها، ثم غلبه عدوه ،وألقوه في النار ،قال في تلك الحال : حسبي الله ونعم الوكيل[٥]، فوقعت الكلمة موقعها ، واستقرت في نصابها[٦] ، فأثَّرَتْ أثرها، وترتب عليها مقتضاها .

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أُحُد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فتجهزوا وخرجوا للقاء العدو[٧] ، وأعطوا[٨] الكَيْسَ من نفوسهم، ثم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل[٩] .

فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢]، [فجعل التوكل بعد التقوى التى هى قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله فهو حسبه][١٠] ، وكما قال في موضع آخر :

---

(١) فى ك : « غلب» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢) أبو داود فى الأقضية (٣٦٢٧) ، وأحمد (٦/ ٢٤، ٢٥) ، وضعفه الألبانى .
(٣) فى ح : « قال » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٤) فى ق : «كسبًا » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ك .
(٥) البخارى فى التفسير(٤٥٦٣، ٤٥٦٤) .
(٦) فى ك : « مصابها» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٧) فى ك : « عدوهم » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٨) فى ك : « وأعطوهم » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٩) ابن جرير فى التفسير (٧/ ٤٠٢) ، وتفسير ابن كثير عند الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .
(١٠) ليست فى ح ، خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة] ، فالتوكل ، والحسب بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبا بنوع من توكل[١] فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا، ولا يجعل عجزه توكلا ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها .

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس :

إحداهما : زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كاف في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها ، فوقعوا في نوع تفريط، وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب ، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهم[٢] كله وصيروه هما واحدا ، وهذا وإن كان فيه نوع قوة من هذا الوجه، ففيه ضعف من جهة أخرى ، فكلما[٣] قوي جانب التوكل بإفراده[٤] أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكل محله الأسباب ، وكماله بالتوكل على الله فيها، وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض ، وألقى فيها البذر ، وتوكل على الله في زرعه ، وإنباته[٥] .فهذا قد أعطى التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض ، وتخليتها بورا .

وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جده في السير ، وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب الله ،والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته .

فهذا [هو] [٦]التوكل الذي يترتب عليه أثره ،ويكون الله حسب من قام به،

---

(١)فى ك : « التوكل» ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٢)فى ك : « لهم » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٣)فى خ ، ك : « فلما » ، وما أثبتناه من ح ، ق .
(٤)فى ح : « بانفراده » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .
(٥)فى ك : « إنباعه » ، وما أثبتناه من ح ، خ ، ق .
(٦)ليست فى ح ، ق ، ك ، وما أثبتناه من خ .

وأما توكل العجز، والتفريط فلا يترتب عليه أثره، ليس الله حسب صاحبه، فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعا، وقدرا ، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته ، فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم ، [ولا] [(١)] كفايته إياهم ،ودفاعه عنهم ، بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل .

فالقوة كل القوة في التوكل على الله ،كما قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية، والحسب، والدفع عنه ، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما نقص من التقوى، والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما لا بد أن يجعل الله له مخرجا من كل ما ضاق على الناس ، ويكون الله حسبه وكافيه.

والمقصود أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله، ونيل مطلوبه أن يحرص على ما ينفعه، ويبذل فيه جهده ،وحينئذ ينفعه التحسب، وقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، بخلاف من عجز، وفرط، حتى فاتته[(٢)] مصلحته،ثم قال : حسبي الله ونعم الوكيل، فإن الله يلومه، ولا يكون في هذه الحال حسبه، فإنه إنما هو حَسْب من اتقاه ، ثم توكل عليه .

---

(١) ليست في ح ، خ ، ق ، وما أثبتناه من ك .

(٢) في ح : « فاته » ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .